الدرس الخامس:

أ- أبوحيان التوحيدي وموقفه من النثر

بعُمْقٍ دلالي كبير، يُمارس أبو حيان التوحيدي؛ نشاطه النقدي؛ فيقول بكل أريحية: « وأحسن الكلام ما رقَّ لفظهُ، ولطُفَ معناه، وقامتْ صورتهُ بين نظمٍ كأنه نثرٌ، ونثرٌ كأنّهُ نظمٌ.»

ويقول في موضعٍ آخر: « إذا نظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما (...) كان أنّ المنظوم فيه نثرٌ مِنْ وجهٍ، والمنثور فيه نظم من وجهٍ، ولولا أنّهما يستهمان هذا النعت؛ لما إئتلفا ولا إختلفا...»

يُعَدُّ أبو حيان التوحيدي أول منِ اهتدى إلى حقيقة النثر الفنّي؛ فحلّل مقوّماته تحليلاً دقيقاً، وبيّنَ أهمية كلٍّ من عنصُرَيْ العقل والموسيقى في النثر الفني، وحسب رأيه؛ فإنّ الشعر لا يختصُّ وحده بالموسيقى والخيال، بلْ هما قدرٌ مشتركٌ بين الشعر والنثر الفني، والفرْق بين النوعيْن نسبيٌ، أما الجوهر فواحدٌ.

أُختلف في تاريخ ولادة أبي حيان التوحيدي؛ فقيل: إماّ 312هـ أو وُلد في أوائل القرن الرابع هـ. وكذلك بالنسبة لوفاته، إما 400هـ أو 414 هـ. سمح تتلمذه على أيدي شيوخ العلم والأدب والفلسفة والنحو والمنطق؛ بأن يصبح هذا الرجل عبقرية فذة؛ فنُعت بـ: "أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء".

ب- ابن خلدون وصناعة الكلام

يقول ابن خلدون في المقدّمة: « إعلمْ أنّ صناعة الكلام نظْماً ونثْراً؛ إنّما هي في الالفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبعٌ لها، وهي أصلُ الصنائع. الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر؛ إنما يُحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجرْيُهُ على لسانه، حتى تستقرّ لهُ المَلَكة ويتخلّص من العُجْمةِ التي رُبِّيَ عليها في جيله، ويفرض نفسه مثل وليدٍ ينشأ في جيل العرب، ويُلقَّنَ لغتَهُم كما يُلقَّنُها الصّبي حتى يصير كأنه واحد منهم؛ في لسانهم، فاللسان ملكة من

الملكات في النطق، يُحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان؛ حتى تحْصُلَ. والذي في اللسان والنطق؛ إنما هو الألفاظُ. وأمّا المعاني فهي في الضمائر. والمعاني موجودة عند كل واحدٍ. فلا تحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر؛ منها آنية الذهب، والفضة والصدف، والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه؛ وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء؛ باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال؛ تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه؛ باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها. وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه؛ على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولمْ يُحْسِنْ بمثابة المُقْعَد الذي يروم النهوض؛ ولا يستطيعه لفُقْدان القدرة عليه. »